حامد حسين الفلاحي

طبوغ الحلوى على

قصة اسلام بوليت غو

"امرأة من بلجيكا"

1

بسم الله الرّحمن الرّحيم

قال (عدنان) لأخيه (محمد) وهو يشير إلى طبق حلوى وضع فوق مائدة قريبة : لمن ؟.

أجاب محمد : إنها للسيد (بلانشار) وزوجته.

قال عدنان : والسيدة ؟

وتساءل محمد : (بوليت) ؟

قال عدنان : لا تنسَ أنها جارتنا أيضاً .

كانت الشقّة التي يسكنها الأخوان محمد وعدنان تقع في الطابق الثاني لعمارة مكونة من ثلاثة طوابق تقع على شارع قريب من جامعة (بروكسل)(١)، الطابق الأرضي يسكنه صاحب العمارة (بلانشار) وزوجته (نيلي) والطابق الأول تسكنه سيدة فرنسية إسمها (بوليت) مع رجل هولندي، ولم تكن ثمة رابطة تصل سكنة الطابقين، الأول والثاني، سوى تلك التحية العابرة التي كانوا يتبادلونها عند السلم، محمد وعدنان طالبان في جامعة بروكسل، وبوليت تعمل سكرتيرة في إحدى

(١) عاصمة بلجيكا .

شركات صناعة السيارات ، أما الرجل الهولندي فيبدو أنه بلا عمل .

حمل محمد طبق الحلوى ونزل إلى الطابق الأرضي حيث منزل صاحب العمارة ، ضغط بيده على الجرس ، وأطلّ عليه السيد بلانشار وبادره بالقول وهو يتطلع إلى طبق الحلوى : حلوى ؟

وسأله محمد : ماذا ؟ ألا تعجبك ؟

أجاب بلانشار : لم أقصد هذا ، إنما أردت أن أقول : لِمَ كل هذا التعب ؟

قال محمد : للجار حقوق يا صديقي .

وعرّج محمد عائداً إلى شقّته ، وفي الطريق توقف أمام منزل السيدة بوليت ، أطرق قليلاً ثم تابع سيره وعاد بعد قليل وهو يحمل طبقاً آخر من الحلوى .

وأطلت عليه السيدة بوليت التي لم تستطِعْ أن تخفي دهشتها لهذه الزيارة المفاجئة ، ألقى عليها التحية قائلاً :

ـ إنها هدية ، شيئ من الحلوى .

قالت : شكراً لك ، ألا تدخل ؟

وسألها : صديقك الهولندي ، هل أجده هنا ؟

أجابت : نعم إنه هنا .

ودخل محمد وألقى التحية على الرجل الهولندي الذي إستقبله ببرود ظاهر، ودخلت بوليت إلى المطبخ ثم عادت وهي تحمل صحفة عليها قدح مذهب وضعته أمام محمد قائلة : إشرب ، إنها خمر جيدة .

قال محمد : أنا لا أشرب الخمر .

وسألته في دهشة : لا تشرب الخمر؟ لماذا ؟

قال : لأنني مسلم .

قالت وهي تحمل كأس الخمر وتضعه فوق طاولة قريبة : الإسلام ، أذكر أنني قرأت عنه شيئاً .

قال وهو يشير بيده محذراً : أرجو أن يكون الكتاب الذي قرأتيه عن الإسلام نظيفاً .

وتساءلت : ماذا تعني ؟

أجاب قائلاً : لقد كتب أدباء الغرب والمستشرقون عن الإسلام كثيراً ، وقلما تخلو كتاباتهم من الدسّ والتشويه، قالت انا لا أعرف إلاّ القليل عن هذا الدّين الشرقي. قال معترضاً على عبارتها الأخيرة : إنّه دين إلهي، رحمة الله المهداة إلى العالمين .

ثم أضاف وهو ينظر إلى مكتبة صغيرة :

- يبدو أنكما تحبان القراءة؟

وفيما بقي الرجل الهولندي صامتاً قالت بوليت: أحب القراءة كثيراً.

وسألها محمد: هل تحبين أن تعرفي شيئاً عن الإسلام؟

قالت: نعم.

قال: الإسلام ليس دين معبد وطقوس وتراتيل، إنه منهج حياة، حياة فرد، وحياة أسرة، وحياة أمة، يهدف إلى تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية ومظاهرها يأبى على أتباعه أن يكون لديهم مجرد كلمات تتلى في المساجد والمحافل، فلا قيمة لفضيلة لم تسفر بعمل صالح وتضحية مباركة.

الكلمة الطيبة صدقة، ودعوتك لأخيك بظهر الغيب صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، العمل عبادة، والنوم عبادة، كل خطوة وكل همسة في حياة المسلم عبادة ما كانت خالصة لوجه الله تعالى. قالت: ألا تعيرني كتاباً أقرؤه عن هذا الدين؟

قال: نعم، إن شاء الله.

كانت شقة محمد وأخيه عدنان واحة للدعوة إلى الله، حين تدخلها يذكرك المشهد الماثل أمامك

بـ (دار الأرقم) حين كانت الجماعة المؤمنة تأوي إليه، يذكرون الله ويقيمون شعائره! والإسلام غريب في بروكسل كغربته من قبل في مكة، ولكن الله سبحانه وتعالى: (شاء أن يكون هناك دائماً فريق من الأبرار، لا يخلو منهم عصر ولا جيل، وكأنهم أوتاد الحياة يمسكون بها كي لا تميد وتهوي، وكأنهم مصابيح للحياة يؤلقونها بنور الله)(١)

في هذه الشقة كان يلتقي بعض الشباب المسلمين، تنوعت أوطانهم ولغاتهم وألوانهم: تجد فيهم الطالب والعامل والتاجر، الفقير والغني.

رجل من نيجيريا، وآخر من أندونسيا، وثالث من ألبانيا، رجال ونساء قدموا من أنحاء العاصمة ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من نعمة الإيمان وسط مجتمع يخوض في أوحال الإثم والخطيئة.

هؤلاء الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، كانوا غرباء وسط عالم جاف قائظ، وغربة المنهج والعقيدة أشدّ أنواع الغربة غصّةً وألماً!

---

(١) والموعد الله ـ خالد محمد خالد.

إن الإسلام الحق غريب في ديار المسلمين أنفسهم، فما بالك في هذا المجتمع الذي (تهدر فيه قيمة الإنسان، وتنحدر فيه خصائص الإنسان، بينما تتكدس الأشياء وتعلو قيمتها على كل قيمة للإنسان)!

وإذا كانت غربة المنهج والطريق مُرَّةً ذات غصّة فإنها تؤتي أُكُلها في اتجاهين:

فهو إما أن يثمر تجربة وقوة مضافة، ودرجة عند الله مباركة طيبة، وأعظم رجال التاريخ صنعوا وسط المحنة والصبر والدموع، ورحم الله القائل:

(إن مبادئنا ستبقى عرائس من الشمع، حتى إذا متنا من أجلها إنتفضت وعاشت بين الأحياء)، فالتضحية هي عصب حياة المبادئ، وبغيرها لا تلبث أن تموت.

وإما أن يقود الألم إلى ردّة إلى الوراء حين يتخلى الداعية عن بعض مبادئه مكتفياً بما قدّم من تضحية، متناسياً أن الحقائق ثابتة لا يغيرها ألم أو محنة!

وسط الغربة كان لمحمد وأخيه ميلاد جديد، ومن الناس من يولد مرتين:

مرة حين تضعه أمه، وأخرى حين يخرجه الله من الظلمات إلى النور، هتفا للكثير من الدعوات قبل

أن يؤمنا أنّ الإسلام هو الهدى، وهو دين الحق، وهو كلمة الله الأخيرة.

جنّدَ هذان الشابان نفسيهما للدعوة إلى الله بالعمل الصالح أولاً، وبالكلمة الطيّبة ثانياً، ذلك (أن دعوة مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر، وأنّ تعليماً مهما يكن رائعاً ويقع من الناس موقع الإعجاب، وأن هداية مهما تبلغ من صنوف الخير، كل أولئك لا يغني غناءاً ولا يثمر ثمرة ولا يبقي على الدهر إلّا إذا كان له من يمثله بعمله ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله، ويُعرّفه للناس بالقدوة والأسوة)[١]

والدعوة إلى الله بالقول والعمل تشكل كتيبة من كتائب الحق، تقف على أرض ثابتة لا تهتز ولا تميد، مثل شجرة مباركة طيبة ضربت جذورها في أعماق القلوب، ترويها الدماء الطاهرة والدموع الخاشعة، وهي على ثقة (بعودة أبناء القرآن البررة إلى مركز القيادة، أولئك الذين يجاهدون على كل الجبهات لتنفيذ مقتضيات الخلافة في الأرض والإلتزام بشروطها التي لن تستقيم بدونها لبني آدم حياة)[٢]

---

(١) الرسالة المحمدية - سليمان الندوي - (٢) التفسير الإسلامي للتاريخ - د. عماد الدين خليل.

ولقد بدأ الاخوان خطواتهم الأولى بدعوة المسلمين في أنحاء بروكسل لحضور اللقاء الاسبوعي، هذا اللقاء الذي أثار فضول السيدة بوليت وهي تنظر إلى جموع الشباب والشابات الوافدة إلى شقة الأخوين.

ذات يوم سألت السيدةَ نيلي بلانشار عن إحدى الفتيات وهي تصعد السلم بملبسها المحافظ الذي لايَنمُّ عن زينة، فلم تزد السيدة نيلي على أن قالت: إنها مسلمة.

وتسألها بوليت: وهل هذا لباس المسلمات؟

أجابت نيلي: لا أدري.

كانت بوليت تعرف بعض المسلمات، هنا في بروكسل لايختلفنَ في ملبسهنَّ وحياتهن عن نساء بلجيكا، وتعرف كذلك شباباً مسلمين يرتادون النوادي وكهوف الدعارة، يشربون الخمر ويرقصون!

بَيْدَ أنّ جارَيْها المُسْلمينِ ومن يَفدُ إلى شقتهما كانوا أصحاب صبغة وسلوك يختلف عن أولئك!

والحق أنّ ما أثير في نفسها من تساؤل لم يكن فضولاً مجرداً بل هي نفسها التواقة، الحكمة ضالتها، ظمأى إلى معرفة الحق، تبحث عن الحب الحقيقي، عن رابطة تصل الإنسان بأخيه لاتخضع لضوابط مصلحة أو عرف

أو تقليد، وقد فتح أمامها الكتاب الذي قرأته عن الإسلام نوافذ أطلّت منها على الكثير مما كانت تجهله من حقائق الخلق والحياة والمصير، ووجدت فيه دعوة إلى تحرير العقل من كل قيد، ثم النظر في مبادئ الإسلام وما أحلّ وما حرّم نظرة محايدة، همّها إستقراء الحقائق لا تشويهها، وأكثر ما شاهدها إلى الإسلام دعوته إلى التوسط، فلا رهبانية ولا إباحية، بل الإعتدال في كلّ شيء: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)[1].

ولقد كانت بوليت تشعر أنها بحاجة إلى قوة أكبر من قوتها المحدودة، تأوي إليها وتشعر في ظلها بالأمن والقرار والإسلام قوي، وعنصر القوة كامن في طبيعته، في بساطته في عذوبته، في وضوحه، في شموله، في ملائمته لفطرة الإنسان وتلبيته لحاجاتها الحقيقية، وهو قوي لأنه كلمة الله، خالق هذا الكون والممسك بناصيته.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ *)[2]

لقد أصبح الإنسان اليوم غريباً وسط عالم صنعه بيده، ليس له ما يحميه من التهديدات التي شيدها العلم حوله، وبوليت واحدة من كثير تسرب إلى نفوسهم

---

(١) سورة البقرة ١٤٣ . (٢) القمر ٥٠ .

شعور بالقلق، الخوف من المجهول، إنها تبحث عن يدٍ حانية تمسح جراحها وعذاباتها، عن طريق تمضي فيه آمنة مطمئنة إلى يومها وغدها، فلا خوف ولا قلق ولا إرتياب.

ترى هل ستجد في الإسلام ضالّتها!؟

وذات يوم،

وفي موعد اللقاء الأسبوعي وصل إلى مسامع الجماعة المؤمنة صوت السيدة بوليت وهي تصرخ في وجه الرجل الهولندي:

- إلى متى تمتص أموالي وأنت لاصق بمقعدك كالعنكبوت؟ ويرتفع صوت الرجل الهولندي مهدداً، ثم تهدأ الضجة، ويهبط محمد إلى الدور الأرضي، فأخبرته السيدة نيلي أن بوليت ضاقت ذرعاً بالرجل الهولندي وقد قررت أن تغادر إلى شقة صغيرة.

ويقول لها محمد: إن شقتنا صغيرة، ونحن بحاجة إلى شقة أكبر، فلمَ لا تسكن في شقتنا وننزل نحن إلى شقتها؟ قالت نيلي: لا أريدها أن ترحل، إنني لا أتوقع جاراً أطيب منها.

وفي مساء اليوم التالي عاد الأخوان من الجامعة ليجدا أنّ أثاثهما قد نقلت إلى الطابق الأول، همّا بالهبوط

إلى الدور الأرضي ليشكرا السيد بلانشار وزوجته على هذا الجهد الطيب، وعند السلم التقيا بالسيدة بوليت التي بادرتهما بالتحية قائلة : هل كل شيء كما تحبان ؟ ويسألها عدنان في دهشة : أنت إذن من نقل أثاثنا إلى شقتك ؟

قالت : نعم، وقد ساعدتني السيدة نيلي .

قال محمد : ذلك معروف لا ننساه .

قالت : أنت مزيداً المعروف .

قال : أنا !؟

قالت : ألا تذكر الكتاب الذي أعطيتني ؟

وتحدثت بوليت عن المواجهة بينهما وبين الحق الذي ازداد وضوحاً أمام بصيرتها، من يروي ظمأ الروح وأشواقها ؟

ودعاها الأخوان لحضور اللقاء الأسبوعي القادم، فلعلها تسمع ما يدنيها إلى الحق ويضيء امامها معالم الطريق . وفي ذلك اللقاء التقت بوليت ببعض المسلمات، وعلى أيديهن عرفت الإسلام الحق الذي يُعرفُ به الرجالُ ولا يُعرَفُ هو بالرجال، وإذا كان ثمة خلل في سلوك بعض المسلمين فليس ثمة خلل في أخلاق القرآن، ومن ينشد الماء

عذباً فراتاً فليطلبه عند منابعه الأولى قبل أن تصب فيه الروافد وفضلات المصانع التي تغير لونه ورائحته وطعمه!

وأسلمت بوليت أو (هدى) وهو الاسم الذي اختارته بعد إسلامها، ولم يغب عن بالها وهي تنطق بالشهادتين إنها ستقبض على أمر أهون منه القبض على الجمر!

لقد كانت ضائعة، تسبح في بحر لا تعرف شيئاً عن شطآنه تتلاعب بها تيارات الجهل والجاهلية، فكان لابد من ميلاد جديد وبداية جديدة تملك من خلالها ناصية التمرد على الماضي بكل جماحه[1] وجراحه.

ولقد كان للجوار الطيب والسلوك الكريم للأخوين أول ما شدّها إلى الاتجاه الآخر، ثم كان لقاؤها بمحمد وقراءتها لذلك الكتاب[2] أثر في نفسها دفعها شوطاً آخر في الطريق الجديد، أمّا لقاؤها مع الأخوات المسلمات فقد وضعها وسط قاعدة صلبة هي أحوج ما تكون اليها لمواجهة الغد الجديد بكل أعبائه وأخطاره المحتملة.

ومضت تغذّ السير إلى الله بعد أن أعلنت أمام الجماعة المؤمنة:

(إفسحوا لي بينكم مكاناً فقد قررت أن أسير).

(١) جمح: مضى على غير هداه. (٢) اسم الكتاب: أخلاق القرآن - عبد الله دراز

وبدأ يوم آخر لهذه المرأة، وغادرت شقتها متوجهة إلى محل عملها وهي ترتدي زيّها الإسلامي المحافظ الذي أعدته لها أخت مسلمة من اندنوسيا إسمها (فاطمة)، في سيارة الشركة فوجئت بنظرات العاملين تلاحقها في دهشة واستغراب!

أهذه هي بوليت!؟

ألقت عليهم تحيتها في حياء، وعلت وجهها حمرة، ولكن أحداً لم يردّ تحيتها، لقد أذهلتهم المفاجئة، ولم تتمالك نفسها أمام هذه النظرات، فشعرت بحرارة الدموع ممزوجة بلذة لم تعهدها من قبل، لا، وعَداكِ ذمّ يا هدى،[1] إنّ خطواتك القادمة ستكون ثقيلة متباطئةً، بَيْدَ أن أبطأ السحب سيراً أثقلها حملاً!

وأمام الشركة وعند هبوطها من السيارة فوجئت بالمدير يقلب نظره فيها طويلاً ثم يعقب قائلاً:

- صباح الخير يا أنسة، أرجو أن لا تجدي ما يزعجك.

ولقيت هدى من الأذى ما لقيت، فلم تمشِ في شارع، ولم تطأ حانوتاً، ولم تركب حافلة إلاّ وسمعت همسات ولمزات ولكن، وكما يقول أحد الصالحين:

(١) هذا من أساليب العربية في الدعاء.. ومعناه: لم يصبك ما تذمين به.

(صبراً على لأوائها[1] ، والموعد الله). وحين تشعر بالغربة كانت تردد في قوة : أَحَدٌ أحَد ! وحين تخلو إلى نفسها كانت تستسلم إلى بكاء طويل، أتراه ضعفاً ياهدى؟ تقول هدى :

- أشعر أن في قلبي رقّةً لم أعهدها فيه قبل إسلامي، وكثير ما يطغي عليّ هذا الشعور حتى أغيب في قبضته عن كل شيئ حولي، الألم يواجهني في مكان، ولكنه لا يزيدني إلّا رضا، لقد جاء الربيع.

نعم لقد جاء الربيع، فالإيمان ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض.

ومَدّ الله في عمرها، وَمَدّ في إيمانها، وأصبح منزلها مسرحاً للقاءات نسوية تحضرها المسلمات، وغير المسلمات ممن تأنس فيهن الرغبة في الحق.



(١) لأوائها : شدتها.